اسم الدرس : سورة النبأ | الجزء الثاني

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

هذا هو المجلس الثاني من تفسير سورة النبأ التابع لدورة بصائر قرآنية..

كنا قد توقفنا عند قول الله عز وجل: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) [النبأ: 17].

المرة السابقة تكلمنا عن مهمة الدعاة الأساسية؛ أن عليهم إخبار الناس بوجود وأهمية النبإ العظيم، ولا بد أن يُلقُوا على الناس هذا النبأ العظيم، ويكرروا الكلام عنه؛ بحيث يُحدِث ضجة في المجتمع، حتى يزداد المؤمن يقينًا فيه، والمعرض إما أن يؤمن أو يَجحد.

في المرة الماضية قلنا إن السورة بدأت بتساؤلات عن هذا النبإ العظيم... معنى ذلك أنه أثَّر فيهم.

ثم بعد ذلك تكلمنا وقلنا إن الدعوة التي تخلو من الكلام عن النبإ العظيم، دعوة مقلوبة! فالحديث في الجانب الدنيوي أكثر من الجانب الأخروي هي دعوة مقلوبة في المفاهيم.

وقلنا كيف أن من رحمة ربنا سبحانه وتعالى عندما قال: (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) [النبأ: 4-5]؛ أنه لم يقل بعدها مباشرة: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) [النبأ:17]. بل قال: (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ () ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) وتكلم بعدها عن النِّعَم وقدرة ربنا سبحانه وتعالى، وكما قلنا في الآيات السابقة من: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا) [النبأ: 6] إلى قوله تعالى: (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) [النبأ: 16] أنها من الأدلة على البعث من أكثر من وجهة ذكرها المفسرون.

يوم الفصل

بعد ذلك قال الله عز وجل: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) [النبأ: 17] النبأ الذي تختلفون فيه وبعض الناس تنكره، وبعضهم يستهزئ به، والبعض يشك في حدوثه وغيرهم يقولون: (.. إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) [الجاثية: 32]. وهذا ذكرني بأحد الإخوة عندما سأله أحد الناس في الخارج عن رأيه في البعث، فيقول: تذكرت قول الله عز وجل: (.. إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) فالله –سبحانه وتعالى– جاء بأسلوب التوكيد الذي من أحد أوجه استعماله عندما تخاطب المنكِر فتقول له: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) [النبأ:17] فالموضوع هنا تجاوز الإثبات إلى أن الأمر سيحدث وواقع لا محالة، وكلمة (كَانَ مِيقَاتًا) أي أن الأمر مفروغ منه منذ زمن، ومثلما قال الإمام ابن عاشور: فهذه الإجابة كأن يقال له: الجواب ما ترى لا ما تسمع.

مثل الطالب الذي يُنكر وجود الاختبارات، فأنت تجاوزت مرحلة الإثبات له بوجود اختبارات، إلى مرحلة إخباره بأن يوم الاختبار هناك من سيرسب فيه، وهؤلاء سيحدث لهم كذا وكذا.. فأنت تجاوزت الإثبات إلى التقرير بالنتائج المترتبة على الأمر الذي ينكره.

وبدأت الآيات تتحدث عن النبإ العظيم، وهنا اختار الله –عز وجل برحمته وبفضله وبحكمته –سبحانه وتعالى– كلمة "يوم الفصل"، هذا الذي ينكرونه أسماه "يوم الفصل"، لماذا يوم الفصل؟ إضافة "الفصل" إلى "يوم" وكأن هذا اليوم خصيصًا للفصل، كأن هذا اليوم لم يُجعل لشيء أساسًا إلا للفصل، لماذا؟ وكأن أغلب الخائفين منه –المنكرين سواء السادة والقادة أوغيرهم– خائفون من الفصل في القضايا، فهو دائمًا يَطغى على الآخرين، جعل له مصالح مادية من نظام مخالف للشريعة لأنه مستفيد منه، فالله عز وجل يقول له سيأتي يوم سيُفصَل فيه، كل أحدٍ سيقف عند حده.

لذلك هنا عندما تكلَّم الله عز وجل عن جهنم قال إنها:"للطاغين" المتجاوز للحدود، فالله عز وجل يُخبر أن هناك يومًا يرجع فيه كل شخص إلى مكانه، (إن يوم الفصل) [النبأ:17] فهناك علاقة بين (إن يوم الفصل) و(للطاغين ...) [النبأ:22] وبآخر السورة (يا ليتني كنت ترابا) [النبأ:40]، بل إن الله عز وجل سوف يَقتصُّ من الحيوانات، فالفصل لن يكون بين بني آدم فقط ولكنه سيحدث كذلك بين البهائم، فيحيي الله عز وجل البهائم؛ تخيل قدرة الله عز وجل في إحياء البهائم التي كانت ترابًا فقط لمجرد العدل! فالله عز وجل سمى هذا اليوم وسبقه بأداة التوكيد (إن يوم الفصل).

فهؤلاء كانوا ينكرون حدوث فصل، فبالتالي هو لا يريد هذا الفصل في الدنيا...أتت العقيدة والشريعة لكي يحدث فصل بين الناس على ما يُرضي الله، فهذا يأخذ حقوق كذا، والحاكم له حقوق لا يجوز له أن يَطغى ويتجاوزها، وأن الإنسان له حدود، والمؤمن بالله عز وجل له حقوق، والكافر له حقوق وعليه واجبات، والمؤمن كذلك، والزوج والزوجة، والأب والابن، الكل له حقوق وعليه حدود فهذا هو الفصل. فمن رَفض هذا الفصل في الدنيا ورفض هذه الحدود واختار الطغيان، مثلما أخبر الله عز وجل عن الذي يُنكر يوم القيامة فهو لا ينكره استبعادًا، (لا أقسم بيوم القيامة () ولا أقسم بالنفس اللوامة () أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه) [القيامة:1–3] فهنا يخبرنا الله عز وجل أن مشكلة هذا الشخص أنه: (بل يريد الإنسان ليفجر) [القيامة:5] فهو اختار أن يَفجر، فالله عز وجل يقول: سيأتي اليوم الذي ستوضع فيه ضوابط، هناك فصل لن تتعداه، ولن يتكلم أحد إلا بإذنه سبحانه وتعالى، مثلما سيأتي في آخر السورة.

(إن يوم الفصل كان..) [النبأ:17] أي أن الأمر منتهٍ (ميقاتًا) هذا الذي تنكرونه له ميعاد، تأمل هذا الضغط النفسي الذي يستعمله القرآن، هذا اليوم الذي لا زلتم تتساءلون هل سيحدث أم لا، وتستهزئون بالحديث عن يوم القيامة، وتسألون أسئلة استنكارية باستهزاء، فيقول الله عز وجل: (كان

ميقاتًا) ، ومن معاني (ميقاتا) أن يكون مكانًا مخصصًا لأن تلقى فيه أحدًا، فكأن –من المعاني التي ذكرها بعض المفسرين– هناك يومًا ستلقى فيه ربك، كما قال تعالى: (إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه) [الانشقاق:6] ، قيل: فملاقي عملك أو فملاقي ربك! تأمل؛ (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) [النبأ:17] ، اليوم الذي تُنكره له ميعاد محدد ومفروغ منه.

(يوم...) وهو يوم الفصل، (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجًا () وفتحت السماء فكانت أبوابًا () وسيرت الجبال فكانت سرابًا) [النبأ:18-20] هنا ينتهي الحديث عن يوم الفصل، ثم الكلام عن جهنم (إن جهنم...)، الله سبحانه وتعالى قال ثلاثة أمور بعد الكلام عن يوم الفصل، قال: تأتون أفواجًا، والسماء تكون أبوابًا، والجبال تصبح سرابًا، وبعدها الحديث عن جهنم.

كلمة (فتأتون أفواجًا) كأنهم يأتون دون ممانعة (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلًا) [الإسراء:52]، أي أن هذا الإتيان (فتأتون أفواجًا) أي دون ممانعة، فعندما يقول الله عز وجل: (تعال) ستأتي مباشرة.

مثل الحديث الذي جاء في الصحيح (عندما قال رجلٌ لأولاده وكان قد عَمل من السيئات وأكثر منها فقال: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ارموا نصفي في البحر ونصفي في البر، فقال الله عز وجل للأرض: أدِّ ما فيك، وقال الله عز وجل للبحر: أدِّ ما فيك، وقال الله عز وجل له: قم، فقام بين يديه)[1]. هذه هي (فتأتون) ، فالله عز وجل عندما يقول: (تعال)، ستأتي!

(فتأتون) ماذا؟ (أفواجًا).. الأفواج: المجموعات المتسائلة عن النبإ العظيم في أول السورة؛ بنفخة واحدة ستنتقل لتقف بين يدي رب العزة سبحانه وتعالى. يا من كنتم تتكلمون وتستهزئون؛ هذا الحديث سوف ينقطع بنفخة واحدة وتنتقلون إلى الوقوف بين يدي الله عز وجل تُسألون عن أقوالكم وأفعالكم.

(يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجًا) [النبأ:18] ، وقيل (أفواجًا): ليس فقط المجموعات المتسائلة، بل كل مجموعة ستأتي حسب جريمتها، المستكبرون يكونون معًا، ومتبعو الشهوات معًا، وآكلو الرِّبا معًا، والطغاة السياسيون والطغاة الاقتصاديون؛ كل الطغاة معًا، (للطاغين مئابًا) [النبأ:22] سيأتون في مجموعات، وكل شخص مع جريمته (فتأتون أفواجًا).

وذكر الله سبحانه وتعالى لنا الآيات: فقد جعل الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، وخلقناكم أزواجًا، والنوم، والليل والنهار، (وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا) [النبأ:12] ، ولكنه سبحانه وتعالى اختار آيتين من أشد

1- عن أبي هريرة:" أَسْرَفَ رَجُلٌ على نَفْسِهِ، فَلَمّا حَضَرَهُ المَوْتُ أَوْصى بَنِيهِ فَقالَ: إذا أَنا مُتُّ فأحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي في الرِّيحِ في البَحْرِ، فَواللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذابًا ما عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قالَ فَفَعَلُوا ذلكَ بِهِ، فَقالَ لِلأَرْضِ: أَدِّي ما أَخَذْتِ، فَإذا هو قائِمٌ، فَقالَ له: ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ؟ فَقالَ: خَشْيَتُكَ، يا رَبِّ، أَوْ قالَ مَخافَتُكَ، فَغَفَرَ له بِذلكَ"./مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٧٥٦ • [صحيح]

وأقوى الآيات التي ذُكِرت، الجبال التي قال عنها وسماها عز وجل: (أوتادًا)، والسماء التي سماها الله عز وجل (شدادًا) ، فأخبر أنه بنفخة واحدة ستتحول السماء إلى أبواب، والجبال ستتحول إلى سراب، كل هذا التحول يكون بنفخة واحدة. عندما يكون هناك شخص منكر للبعث لإنكار القدرة، فيقول الله عز وجل له إن السماء الشداد والجبال الأوتاد ستتحَوَّل إلى أبواب وإلى سراب بنفخة واحدة... سبحانه لا يُعجزه شيء!!!

(يوم ينفخ في الصور) [النبأ:18] وهذا مبني لغير الفاعل أي أنه يُنفخ في الصور بأمر من الله عز وجل، يُنفخ في الصور من مَلَك واحد فقط ونفخة واحدة فقط (إن كانت إلا صيحة واحدة) [يس:29] أي: نفخة واحدة.

(يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجًا () وفتحت السماء..) الشداد... من اللطائف التي قالها بعض المفسرين: إن السبع الشداد سيجعلها الله تفتح بسهولة، ولم يقل أنها تكسَّرت بشدة! بل قال أنها "فتحت"! وسهولة التحويل من سبع شداد إلى كونها أبواب، والباب أضعف شيء في المبنى، فالسماء كلها ستكون أبوابًا: (وفتحت السماء فكانت أبوابًا) [النبأ:19].. والجبال الأوتاد تُسَيَّر، وكلمة التسيير تدل على اللطف والسهولة: (وسيرت الجبال فكانت سرابًا) [النبأ:20] هذه القدرة العظيمة في تحويل الآيات التي كانت مستقرة إلى آيات غير مستقرة، وتكوَّر الشمس والقمر!!!

(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا () وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا () وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) [النبأ: 16-18] وهنا ينتهي التأكيد بـ"إنَّ" على يوم الفصل، ويأتي التأكيد الثاني بـ: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) [النبأ: 21]. وكأن (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) الأولى ليوم الفصل، (ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) الثانية لجهنم، فقيل إن أحد المعاني أنهم سيعلمون يوم الفصل وسيعلمون جهنم، فهم قد أنكروا أمرين؛ كانوا يخافون من يوم الفصل، ويخافون من العذاب، فيقول الله -عز وجل- سيأتي الفصل وستُعذَّب: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17))، (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21)).

أيضًا التعبير هنا يدل على أن القرآن بالفعل من كلام رب العزة -سبحانه وتعالى-: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) ، كَانَتْ: أي أن الموضوع مفروغ منه.

ماذا تعني مرصادًا؟

قالوا: الرَصَد مثل الكمين الذي يقومون بصنعه، مثلًا الحيوان المفترس يقوم بعمل كمين للفريسة فيتركها لتمر من أمامه بينما يكون هو في حالة استعداد، وبمجرد مرورها يهجم عليها، هذا هو الرصد.. فكأن الله -عز وجل- يُشَبِّه لنا مشهد أناس يسيرون في طريق وهم يضحكون ويمزحون وهناك حيوان مفترس ينتظرهم وهم مستمرون في ضحكهم ولَهْوِهِم، وفجأة تهجم عليهم جهنم ولن يَمُرَّ أحد.

وقيل: الرَصَد: الذي يترقب فيسمح بالمرور لأحد ولا يسمح لآخر. فقيل: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) [النبأ:21]لكل الناس، تسمح بمرور المؤمن، وهذا هو القول الحسن: إن من كان معه الجواز جاز وعبر، ومن لم يكن معه سقط ووقع.. أي أن جهنم كأنها جالسة كالمرصاد، المرصاد هذا هو الصراط، فالمؤمن سيَمُرُّ أما الكافر فلا، هذا الذي كانت تنتظره، فتهجم عليهم وهم يضحكون ويلعبون.

لذلك الله –سبحانه وتعالى– يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: (ذَرْهُمْ)[2]، هؤلاء سيأتي عليهم الوقت الذي تنتقم فيه منهم جهنم، قال بعضهم: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) [النبأ: 21] تقف، لأن مرصادًا ليست للطاغين فحسب بل مرصادًا لكل الناس، لكنها مآبٌ للطاغين أي: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) فهناك محذوف، فيعبر المؤمنون ويقع ويستقر فيها الكافرون. إذًا (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا () لِّلطَّاغِينَ مَآبًا) [النبأ:21–22] مُسْتَقَرٌّ.. إنما المؤمن سَيَمُرُّ لذلك قيل: "مرصادًا".

وهناك من قال: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا () لِّلطَّاغِينَ مَآبًا) أن "لِّلطَّاغِينَ" يمكن أن تتعلق بالمرصاد ويمكن أن تتعلق بالمآب، وهذا مبحث من مباحث اللغة العربية يُسمَّى "المتنازع فيه" فقيل: إنها كانت مرصادًا للطاغين فقط، وقيل: مرصادًا لكل الناس.

إذًا (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) يمر المؤمن لأن معه الجواز بأن يمر، أما الكافر فلا، والكلاليب تخرج وتخطفه، لأن جهنم من قبل أن يأتي وهي مغتاظة، لذلك تعبير النبي –صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام"[3] ! انظر الزمام، كأنها ستفلت حيث أنها تكاد تميز وتتقطع، من ماذا؟ من الغيظ ولها زفير، فهي بالفعل مخلوق يغضب بل وبعدما يسقط فيها الكافرون تقول هل من مزيد، فالله – سبحانه وتعالى– يقول لهم: التي تستهزئون بها تلك، قد أُعِدَّت لكم وهي الآن منتظرة ومترقبة وأنتم تنكرونها، (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) لكل الناس ثم تقفز لتوقع الطاغين، واختيار لفظ "الطاغين" هنا لأنه طغى وتجاوز الحد، كان يرفض الفصل كان يرفض الحساب فهم كانوا –كما جاء في الآية– (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) [النبأ: 27] لا يريد أن يُحاسب، لا يريد أن يسأله أحد من أين وكيف وبكم وإلى أين أنت ذاهب؟ لا؛ بل هو يريد –كما قال الله في سورة القيامة– (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ) يريد ماذا؟ (لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) [القيامة: 5] كأنه أنبوب انفجر، لا يريد أن يوقفه أحد، كما قيل: يريد الإنسان أن يسير حسب هواه، لا يريد أن يسمع كلمة حرام، (لا يرجون حسابا) لا يريد أن يُحاسبه أحد.

---

[2](ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) [الحجر: 3]

[3] عن عبدالله بن مسعود: يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سَبْعُونَ أَلْفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا/مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٨٤٢ • [صحيح]

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) [النبأ: 21] للطاغي الذي تجاوز كل الحدود ولم يكن يريد فصلًا وطغى على الناس وتكبر عليهم، لذلك الطاغي هنا، الذي كان يطغى على الناس سوف يرى في آخر المشهد (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ)، إذا كان جبريل والملائكة سيقفون هكذا، إذًا هو ماذا سيحدث له؟ (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا) [النبأ: 38]. فهنا، كلمة "لِّلطَّاغِينَ" متناسبة مع كلمة "الْفَصْلِ" ومتناسبة مع كلمة "حِسَابًا"

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا () لِّلطَّاغِينَ مَآبًا) [النبأ: 21-22] تخيل عندما تكون جهنم مستقرًا للإنسان، ليس هناك أمل للفرار، ليس هناك أمل للنجاة.. عندما يتعب الشخص طيلة اليوم ثم يعود أدراجه لبيته، يريد أن يعود إلى مآبه لكي يستريح. وكأن الله -سبحانه وتعالى- يقول له: أنا جعلت لك الأرض مهادًا -مثل مهاد الطفل- وأنت كفرت بهذه النعمة فجعلت لك جهنم مآبًا لا مهادًا، أنت كفرت بنعمة الأرض المهاد، فجَعَلْتُ لك جهنم مآبًا والعياذ بالله.

(لِّلطَّاغِينَ مَآبًا) [النبأ: 22]، لكن كم سيمكث فيها؟ (لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) [النبأ: 23]، اللبث في الأساس يدل على طول الزمن، لذلك جاء في قصة سيدنا نوح: (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) [العنكبوت: 14] عندما جاء الحديث عن أعوامٍ طويلة أتى بكلمة "لبث"، اللبث في الأساس طول الإقامة. "لَّابِثِينَ" اسم وليست "يلبثون" فعل، انتهى كل شيء سيظل فيها ولن يتحرك عنها. (لَّابِثِينَ فِيهَا) أي في جهنم (أَحْقَابًا)

معني أحقابا

العلماء توقفوا هنا عند (أَحْقَابًا) اختلفوا في الحقبة من الزمن هل هي ثمانون سنة أو سبعون سنة أو مائة سنة؟ أيًا كان فقد قالوا: (أَحْقَابًا) الحقبة الواحدة فترة زمنية. هل الطاغين الكفار سيظلون في النار فترة ثم يخرجون؟ أم ماذا سيحدث؟ قالوا: لا، بل ذكروا لها معنىً هائلًا، معنىً يحمل بين طيَّاته عذابًا نفسيًا، قالوا: كل مرة يُقال له أنت ستُعَذَّب ثمانين سنة فيَتَوَلَّد عنده أمل أنه بعد انتهاء الثمانين سنة سيخرج، فيتعذب ويَعُدَّ: عشر، خمس عشرة، عشرون، أربعون، سبعون، تسع وسبعون، حتى يُنهي الثمانين، فيُقال له: ستأخذ حقبةً أخرى!

وهذا من العذاب النفسي، فهو دائمًا في عذاب نفسي، لذلك الله -سبحانه وتعالى- يقول: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) [الحج: 22]، (كلما نضجت جلودهم) ويشعر أنه لن يحس بألم مجددًا (بدلناهم جلودا غيرها) [النساء: 56] ، (سأرهقه صعودًا) [المدثر: 17] كأن هناك جبلًا هو مطالب بأن يصعده، فيظل يصعد ويصعد إلى أن يشعر بأنه قد وصل، فيُضرب بمطرقة فينزل مرة

أخرى.. ألم، عذاب نفسي شديد، شعور أنك ستخرج وكلما اقتربت من المخرج ابتعد عنك، (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا) [السجدة: 20] ، (سأرهقه صعودا)، (كلما نضجت جلودهم بدلناهم)، (أَحْقَابًا) كلما انتهت حقبة زيدوا حقبةً أخرى، هذا أحد معاني العذاب النفسي.

لذلك من معاني قول الله عز وجل: (إنها عليهم مؤصدة() في عمد ممددة) [الهمزة:9] قيل: مؤصدة أي أن هناك بابًا مغلقًا بالرغم من كونهم في سجن مؤبد لن يخرجوا منه، فالعلماء يقولون ما حاجة الباب إذًا؟! هذا الباب ليُشعِرَهم أن هناك أملًا أن يُفتح لكنه لن يُفتح، دائمًا يتجدد له الأمل.. من أشد أنواع العذاب النفسي أن يتجدد للإنسان الأمل ثم يُحبَط، فيتجدد له الأمل ثم يحبط، هذه هي معاني: (لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) [النبأ: 23].

وقيل: (أَحْقَابًا) ليس فقط تحديد العذاب النفسي، بل أيضًا عذاب مختلف في كل حقبة. فنجد هنا في السورة التنويع في العذاب كما كان هناك تنويع مبهر في الآيات، الأرض مهاد والجبال أوتاد والسماوات شداد والسراج وهاج والمطر ثجاج والحدائق جنات وألفاف.. كما كان هناك تنويع في النعم، هنا السورة مليئة بالتنويع في العذاب، منها: (لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) أي أن كل حقبة لها عذاب مختلف، فيُقال مثلًا هذه الحقبة عقاب الحميم فيظل يُعذَّب ثمانين سنة، ويظل خائفًا تُرى ما نوع العذاب في الحقبة التي تليها.. الحقبة التي تليها الزمهرير/البرد، الحقبة التي تليها مطارق من حديد.. والمشكلة من زيادة التنويع أن كل حقبة عذابها أشد من التي قبلها وهذا تفسير قول الله عز وجل: (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابًا) [النبأ: 30] شيء مهول، هذه هي قمة العذاب، لذلك قالوا هذه الآية أشد آيات العذاب، هي والآية التي وردت في سورة إبراهيم: (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) [إبراهيم: 17]، قالوا: هاتان الآيتان أشد آيات العذاب في القرآن.

وهناك أثر مرفوع -لكن فيه ضعفًا- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وبعضهم قال إنه موقوف على عمرو بن العاص: "إن هذه أشد آية عذاب في القرآن"[4].. واختار الإمام ابن جرير أن الحقبة نوع عذاب والحقبة التي بعدها نوع عذاب آخر.

ومن سياق الآيات التنويع ليس فقط في العذاب لكنه أشد.

إذًا فهكذا لدينا آيتان في التنويع: أحقابًا، ولن نزيدكم. (لابثين فيها أحقابًا () لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا) [النبأ: 23-24] فماذا يفعل طيلة مكوثه في النار؟ الله -عز وجل- يقول بأن هذا مستقرهم

4-عن عبدالله بن عمرو: لم يَنْزِلْ على أهلِ النارِ آيةٌ أشدُّ مِن هذه الآيةِ: (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا)/ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، فتح الباري لابن حجر ٦/٣٨٤ • [روي] مرفوعاً وموقوفاً على عبد الله بن عمرو

ومآبهم (للطاغين مآبًا) [النبأ: 22] ، فعندما تسمع كلمة "مآبًا" تتساءل: هل يعني هذا على الدوام؟ فالله –سبحانه وتعالى– يقول لك (أحقابًا)، فتتساءل ما الذي يفعلونه طيلة فترة العذاب؟ كيف ينامون؟ ماذا يفعلون؟ (لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا) [النبأ: 24]، قيل فيها: أي في جهنم.. وقيل فيها: أي في الأحقاب، أي طيلة هذه السنوات لا برد يخفِّف عنه الحر ولا شراب، لا يذوق شربة ماء، وطبيعة الإنسان عندما يكون الجو حارًا لا يرغب إلا في شيئين: بعض الهواء وشربة ماء فقط.. فهنا كلمتا (بردًا وشرابًا) جاءت نكرة وهذه قاعدة لغوية هي: أن نفي النكرة يفيد النفي المطلق. أي أنه لو كانت "لا يذوقون فيها الشراب" كان من الممكن أنهم لن يشربوا هذا الشراب المعين لكنهم سيشربون شرابًا آخر أو شراب سيء أو شراب رديء.. أي أنه لا يوجد أي شيء يَصح أن يُطلق عليه شراب أو برد، ولا يوجد ذرة هواء تُلطِّف عليه وتُبرّده، لا يوجد، (لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا) "فيها" سواء في الأحقاب أو في جهنم (إلا حميمًا وغساقًا) [النبأ: 25]، بعضهم قال: البرد هنا بمعنى النوم وإن كان ضعَّفه بعض أهل العلم وضعَّفه الإمام الطبري، لكن رُوِي عن بعض السلف أن البرد أي النوم. حيث أنه عندما كفر بنعمة النوم (وجعلنا نومكم سباتًا) [النبأ: 9] حُرِم منه في جهنم والعياذ بالله.. وكما أن أهل الجنة لا ينامون تنعُّمًا فأهل النار لا ينامون عذابًا والعياذ بالله.

آية مرعبة (لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا () إلا...) عندما تسمع كلمة "إلا" تتساءل: إذًا ماذا سيشربون أو ماذا سيذوقون؟ (حميمًا وغساقًا) ، قيل: الحميم الماء الذي بلغ أشد درجات الحرارة، والغساق قيل أنه الشيء المثلج الزمهرير فكأن الله –سبحانه وتعالى– يقول لهم: أنتم طيلة لبوثكم الأحقاب لا يوجد برد ولا شراب، إذًا فماذا يوجد؟ يوجد في حقبة حميم وفي حقبة أخرى برد.. مثل هذا الذي يستحم بمياه باردة ثم ساخنة ثم باردة ثم ساخنة وهكذا وراء بعضهما هو يتعذب بهذا، هنا أيضًا من شدة الألم إنه يخرج من الحميم للغساق ومن الغساق للحميم وبعدما ينتهي الغساق يذهب للحميم، وبعدما ينتهي الحميم يذهب للغساق، هذا على معنى أن الغساق هو البرد.

وقيل إن الغساق –وهذا هو الأشهر والأقوى عند العلماء– قيل الغساق: ما يسيل من صديد أهل النار ومن نتن الذين هم فوقهم في النار –والعياذ بالله– ينزل عليهم، فمن شدة عطشهم يقومون بشربه والعياذ بالله. يضطر أن يشربه فيُقَطِّع بطنه ويقف في حَلْقِه، وكما كان هؤلاء الطغاة المتكبرين الذين يتساءلون وينكرون يسقون الناس عفن أفكارهم ونتن كلامهم ويجبرون الناس ويسوقون الناس سوقًا على هذه الأفكار؛ فهو سيشرب الصديد، كما قال الله عز وجل: (يتجرعه ولا يكاد يسيغه) [إبراهيم: 17] كما كان يُجرّع الناس أفكاره فهو يشرب الآن صديد أهل النار –والعياذ بالله– لأنه بما أنه كان كبيرًا في الدنيا فسيكون في الأسفل –والعياذ بالله– (نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) في سورة فصلت[اية:

29].. فالقادة سيكونون في الأسفل، مثلما قال ربنا: (خافضة رافعة) [الواقعة: 3] فهو في الأسفل يشرب الصديد الذي ينزل .

(إلا حميما وغساقا) [النبأ: 25]

الإمام ابن عاشور قال معنى خطيرًا جدًا، قال هنا (حميما وغساق) هؤلاء لايشربون لأن ربنا قال: (لا يذوقون) , قالوا: ماذا عن الحميم والغساق؟ قال الحميم يُصَبُّ على جسده فيسبب جروحًا فينزل الصديد على أماكن الجروح فيزيدها ألمًا –والعياذ بالله– آية مرعبة! (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا() إلا حميما...) أي يُصَبُّ عليهم الحميم، هذه الآية هنا ليس المقصود أنهم يشربون الحميم، بل المقصود: يُصَبُّ عليهم الحميم والغساق. الإنسان عندما يقرأ هذه الآيات قد يشفق عليهم، فربنا يقول: لا! (جزاءً وفاقًا) [النبأ: 26] ما فعلوه أشد، هذا موافق لأعمالهم، كما كانت أعمالهم نتنة وصديدًا وكما كان كلامهم خبيثًا وكما كانوا يستهزئون: (جزاءً وفاقًا).

إنما مع أهل الإيمان: (جزاءً من ربك عطاء حسابا) [النبأ: 36].

(جزاءً) : ما فعلوه سيُجَازون عليه، (جزاءً وفاقًا) كل شيء بالضبط أي بالتقدير، أي مقدار العذاب بالضبط كما قدَّموا، لذلك كان هناك إجابة جميلة قالها الإمام سعيد النورسي عندما كان يُسأل عن الشبهات – بالطبع أجاب العلماء إجابات كثيرة لكن سأذكر فقط إجابة النورسي– بعض الملحدين يقولون: أنتم تقولون إنه إذا كان الكافر عمره مثلًا ستون سنة فهو عمر مؤقت، بينما سيُعَذَّب عذابًا مؤبدًا فكيف يُعذَّب بالمؤبد على المؤقت؟ أي كيف ما لا يُحصى من الأيام على أيام؟ فقال لهم: يُعاقَب بما لا يحصى من الأيام لأنه أنكر ما لا يحصى من الآيات، هو يُعاقب عقابًا كَيفِيًّا، لأن كمية الآيات التي أنكرها لا تُحصى، كما قال ربنا: (وكذبوا بآياتنا كذابًا) [النبأ: 28]–وسنأتي على معنى كِذَّابًا– هو كذَّب بما لا يُحصى من الآيات، وأنكر ما لا يُحصى من النعم، فيُعاقَب بما لا يُحصَى من العذاب، يُعاقَب على كل آية أنكرها وكل نعمة كفر بها، يُعاقَب عليها(جزاءً وفاقا).

لماذا يحدث كل هذا لهم؟ (إنهم كانوا...) كانوا: من كينونتهم، أصبح من تركيبتهم، أي ظل يجاهد نفسه حتى أقنع نفسه (إنهم كانوا لا يرجون حسابًا) [النبأ: 27], كان يسخر ويقول كيف يحيي الله العظام وهي رميم؟ كان يُمسك ترابًا ويقول: هذا غير منطقي، فيقول: (فَأتوا بِآبائِنا إِن كُنتُم صادِقين) [الدخان: ٣٦]. كان يأتي بالشبهات ويقول: كيف نُبعث بعد موتنا؟ كانت مشكلته كما قال الله عز وجل: (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) [القيامة: 5] مشكلته الحقيقية ليست في القدرة ولا في الحكمة ولا في النعم، مشكلته أنه (لا يرجون حسابا) ، (إنهم كانوا) كانوا: جزء من الكينونة،(لا يرجون حسابا) ..

العلماء وقفوا عند كلمة (لا يرجون حسابا) وقالوا: كان من المتوقع أن يقول ربنا: إنهم كانوا لا يخافون، وفسر بعض المفسرين كلمة (لا يرجون) بمعنى لا يخافون، كيف (كانوا لا يرجون) والرجاء تعني أنه يحب ويأمل؟ العلماء فسروها بأكثر من تفسير، منهم من قال –وهذا الإمام الرازي– إن من يرجو الحساب أي ينتظره بفرحة، فمن ينتظر الحساب هو من عمل الحسنات، فمن ينتظر النتيجة هو من ذاكَر، يتمنى أن يكون من الأوائل، فالمؤمن يقول: رَبِّ أقم الساعة، رَبِّ أقم الساعة ، أما الطاغون المفسدون الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي (لا يرجون حسابا) أي لم يفعلوا حسنة واحدة ينتظر أن يُجازى عليها والعياذ بالله.

وقيل (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) [النبأ: 27] , الإمام ابن عاشور قال معنى جميلا، قال: هذا تعريض بغيرهم، فهناك غيرهم ينتظر الحساب، أنتم لا ترجونه ولكن غيركم يرجونه، وقال معنى جميلًا جدًا: أنه عندما سمع أهل الإيمان هذا العذاب وكانوا يُعذَبون في الدنيا ويوضع عليهم الصخر والسياط ويُضرَبون ويعانون من العطش استبشروا فانتظروا حسابهم، فربنا يقول: أهل الكفر كانوا لا ينتظرون الحساب ولا يفرحون به ولكن هناك من المستضعفين من سيفرح بهذا الحساب.. أي: إذا كان الحساب الذي سمعته الذي هو الغساق والحميم مرعبًا بالنسبة لأناس؛ فهناك أناس آخرون سيفرحون بحدوثه، مثل قول الله – عز وجل– في ختام سورة المطففين: (على الأرائك ينظرون) [المطففين: 23] أهل الإيمان يشاهدون عذاب أهل الكفر، يُفتَح لهم طاقات وكُوَّات وهم في الجنة، يُفتَح له نوافذ ينظر لأهل جهنم، ينظر إلى مكان من كان يُعَذِّبه، فكل مُستَضعَف من أهل الإيمان سيكون في الجنة من زيادة نعيمه أنه يُفتَح له مكان ينظر منه للنار ويرى تعذيب من كان يُعَذِّبه فيَسعَد ويشعر أنه أخذ حقه وانتصر، هذا من كمال نعيم أهل الإيمان ومن كمال عذاب أهل الضلال.

(إنهم كانوا لا يرجون حسابًا) [النبأ: 27] وبعضهم قال: (لا يرجون حسابا) إن المؤمن أو العاقل هو من لا يعتمد على الدنيا ولا تكون منتهى أمله ، العاقل من يؤجل حياته للآخرة، هذه الدنيا دار قلق ودار إزعاج، فالإنسان لا يستقر فيها لكن لا بد أن يرجو دائما اليوم الآخر، الإنسان الذي يعيش في الدنيا لا يرجو اليوم الآخر ولا ينتظر يوما آخر هل يظن أن الحياة هكذا انتهت؟! من ينكر البعث ويعيش في تعذيب وضرب وظلم وفساد يظن أن هذه هي النهاية؟! من يعتقد ذلك يظن أن قصة غلام الأخدود والناس الذين ماتوا ورُموا في النار هكذا انتهت؟! لا.. بالطبع لم تنتهِ!

كيف يعيش الإنسان هكذا؟! هذا لا يتصوره عاقل، لا أعرف كيف يعيش هذا الملحد، أنا من الممكن أن أقابل ملحدًا وأضربه وأُقَطِّعَه وأقولَ له: إن هذه هي النهاية طالما أنك لا تؤمن بالبعث!

كيف يعيش وكيف لا يعتقد أن هناك يومًا آخر؟! وكيف لا يعتقد في كمال الفصل مثلما قال ربنا: (إن يوم الفصل كان ميقاتًا) [النبأ: 17].

(إنهم كانوا لا يرجون حسابًا) [النبأ: 27] وليس فقط لا يريد أن يُحاسَب، من لا يؤمن بالبعث ستأتي له تساؤلات وخواطر، كيف لا يوجد بعث؟ من الذي خلق الأرض؟ من الذي أخرج النبتة من الأرض الميتة؟ من الذي أخرج الإنسان من المني؟ كيف لا يوجد بعث ومن الذي أخرج الدجاجة من البيضة؟

هذه الخواطر والآيات التي كان يراها كان يبذل جهدًا حتى يُكَذِّب بها، لأجل ذلك جاءت: (وكذبوا بآياتنا كذابًا) [النبأ:28] المصدر (كذابًا) يفيد المبالغة في التكذيب، أي كان كل خاطر يأتيهم يصرفونه عن أنفسهم، كلما يأتي الليل وسينام يأتيه خاطر أنه من المحتَمل أن يوجد يوم للبعث، فيقول: لا، لا يوجد بعث ولا يوجد حساب، فمعنى أنه يوجد بعث أنني سأُحاسَب، ومعناه أنني سأترك الشهوة، وسأتعامل بالعدل مع الناس ولا أظلم، إذًا كيف سأهدم هذه المنظومة؟ أن أنكر البعث، أهدم أول حلقة فيها، سأقول إنه لا يوجد بعث.. إذًا هناك شهوات وظلم وأفعل ما أريد في الوقت الذي أريد طالما أنه لا يوجد بعث. فكلمة (وكذبوا بآياتنا) الآيات المبثوثة في أول السورة والنعم التي عايشها، نومه نعمة، زوجته (وخلقنكم أزواجًا) [النبأ: 8] نعمة، ابنه نعمة وقدرة، النبتة وطعامه نعمة وقدرة، إذًا كل شيء حوله كان يبذل جهدًا حتى ينكره!

(وكذبوا بآياتنا كذابًا) كما أن النعم كانت محيطة به فكذلك العذاب يحيط به (وكذبوا بآياتنا كذابًا) [النبأ: 28].

كان لا يرجو الحساب فطغى، وكذب بكل نعمة وبكل آية ففجر وانطلق، وليس معنى أنه فجر وانطلق أنه سيُحاسَب بالجملة! لا لا (وكل شيءٍ أحصيناه كتابًا) [النبأ: 29] ليس كل شيء عددناه بل: (وكل شيءٍ أحصيناه) ، الإحصاء كمال الشيء، (علم ألن تحصوه) [المزمل:20] ، لن تستطيع أن تطبقه بالضبط ، (وإن تعدوا نعمَةَ الله) -ليس نِعمَه- (لا تحصوها) [النحل: 18] ، كمال الإحصاء يعني كل شيء أحصيناه، أي الذنب ومكانه وزمانه وكيفيته وقيمته وقدره وتبعاته ومن قلَّده ومن تأثَّر به، إحصاء الذنب ليس فقط عَدُّ الذنب بل وتَبِعاتُه أيضًا، (وكل شيء أحصيناه كتابًا) حتى يكون شاهدًا عليه ولا ينكر يوم القيامة. فبعد كل هذا: (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابًا) [النبأ: 30] كما تذوقتم النعم وأنكرتموها فالآن ذوقوا.

هذه أشد آية عذاب في القرآن: (لن نزيدكم إلا عذابًا).. تخيل مشهد إنسان في جهنم معه كوب حميم شديدة السخونة، ويعلم أنه -في خلال ساعة مثلًا- الكوب الذي سيأتيه بعده أشد سخونة منه، يبادر ويشرب قبل أن يأتيه الكوب الأصعب، أنت لا تتخيل!!

مثلًا أمامه ضريع وهو فهم أنه: (لن نزيدكم إلا عذابا) فهو يعلم أن الضريع الذي بعده أشد من هذا فيبادر بهذا –والعياذ بالله– لأن الذي سيأتي بعده أشد، يبادر أن يشرب الماء الذي كالمهل الذي عندما يقربه يشوي الوجوه ووجهه يتساقط ويشرب لأنه يعلم أن الذي بعده أشد، إحساسه أن الحقبة الزمنية تنتهي، إذا قُلنا مثلا أنها ثمانون سنة فإحساسه أنه بعد تسعة وسبعين سنة وباقي سنة إحساسه أن الحقبة التالية أشد، وإحساسه أنها مبهمة، أحقابًا جاءت نكرة فهو يتساءل ما هي الحقبة القادمة، هذا قمة العذاب النفسي، التنوع في العذاب جاء في: (أحقابًا) , (حميمًا وغساقًا) ,(لن نزيدكم إلا عذابًا) هذا جزاء الذي أنكر.

نعيم أهل الإيمان

قال الله تعالى بعد ذلك: (إن للمتقين مفازًا) [النبأ: 31] وجاءت الصيغ كلها للتأكيد؛ لأن الداعية ينزل لمجتمع مُنكِر، فهو يُثبِّت أهل الإيمان، ويَهُزُّ عقيدة الكفار كي يقول لهم إن هذا نبأ عظيم لا يجب أن تتعاملوا معه تعامل المستهزئ.

فأول نعيم ذكره للمتقين قال: (مفازًا) كثير من العلماء –ومنهم الإمام الطبري– قالوا: مفازًا من العذاب الذي ذُكِر سابقًا.. أنت تقرأ، وأنت مرعوب: (مرصاد) ، (ولابثين) ، (وأحقابًا) ، (حميما وغساقا)، فأول نعيم هو النجاة من هذا العذاب. أهم أنواع النعيم لأهل الإيمان هو الزحزحة من النار فقط: (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة) [ال عمران:185] لذلك قالوا: (إن للمتقين مفازًا) الفوز أنه نجا من العذاب، وهذا أعلى أنواع الفوز. الفوز هو أن يصرف الله تعالى وجهه عن النار: (اصرف عنا عذاب جهنم) [الفرقان: 65].

فآخر شخص يخرج من النار يقول: يا رب، اصرف وجهي عنها فقط يا رب، فأول طلب يطلبه هو أن: يا رب أنا أريد أن يُصرف وجهي عنها فقط. وأول ما يقوله عندما ينجو:الحمد لله الذي نجاني منكِ وآتاني ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين![5]

5-عن عبدالله بن مسعود: آخِرُ مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، ويَكْبُو مَرَّةً، وتَسْفَعُهُ النّارُ مَرَّةً، فإذا ما جاوَزَها التَفَتَ إلَيْها، فقالَ: تَبارَكَ الذي نَجّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أعْطانِي اللَّهُ شيئًا ما أعْطاهُ أحَدًا مِنَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ له شَجَرَةٌ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، أدْنِنِي مِن هذِهِ الشَّجَرَةِ فَلَأسْتَظِلَّ بظِلِّها، وأَشْرَبَ مِن مائِها، فيَقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: يا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إنْ أعْطَيْتُكَها سَألْتَنِي غَيْرَها، فيَقولُ: لا، يا رَبِّ، ويُعاهِدُهُ أنْ لا يَسْألَهُ غَيْرَها، ورَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأنَّهُ يَرى ما لا صَبْرَ له عليه، فيُدْنِيهِ مِنْها، فَيَسْتَظِلُّ بظِلِّها، ويَشْرَبُ مِن مائِها، ثُمَّ تُرْفَعُ له شَجَرَةٌ هي أحْسَنُ مِنَ الأُولى، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، أدْنِنِي مِن هذِهِ لأَشْرَبَ مِن مائِها، وأَسْتَظِلَّ بظِلِّها، لا أسْألُكَ غَيْرَها، فيَقولُ: يا ابْنَ آدَمَ، ألَمْ تُعاهِدْنِي أنْ لا تَسْألَنِي غَيْرَها، فيَقولُ: لَعَلِّي إنْ أدْنَيْتُكَ مِنْها تَسْألُنِي غَيْرَها، فيُعاهِدُهُ أنْ لا يَسْألَهُ غَيْرَها، ورَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأنَّهُ يَرى ما لا صَبْرَ له عليه، فيُدْنِيهِ مِنْها فَيَسْتَظِلُّ بظِلِّها، ويَشْرَبُ مِن مائِها، ثُمَّ تُرْفَعُ له شَجَرَةٌ عِنْدَ بابِ الجَنَّةِ هي أحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، أدْنِنِي مِن هذِهِ لأَسْتَظِلَّ بظِلِّها، وأَشْرَبَ

لماذا جاء التعبير بلفظ "المتقين"؟

(إن للمتقين مفازًا) : لماذا ذكر المتقي هنا؟ هذا المتقي يَتَوَقَّى شيئًا، مثل الذي يمشي -كما يشبهه السلف وغيرهم من أهل اللغة- الذي يمشي على أرض الشوك، فتَجِده يمشي وهو مُتَّقٍ خائف، خائف أن يضع رجله هنا أو هناك، خائف أن يفعل هذا أو ذاك؛ لأنه قد يكون حرامًا. أما الآخر الذي دخل جهنم يقول عنه الله: (إن جهنم كانت مرصادًا) [النبأ: 21] لمن؟ (للطاغين): هذا الطاغي هو الذي يمشي ويدوس، لا يخاف ولا يأبه لشيء.. فالطاغي هو المتجاوز لكل الحدود، أما المتقي فإنه يضع رجله قبل الحد ويخاف أن يتجاوز الحد، ويبتعد عن الشُّبهة. فالمتقي عكس الطاغي، الطاغي هو الذي يتجاوز كل الحدود دون أن يفكر أو يتروى أو يسأل أو يقف.. أما المتقي فقبل أن يخطو أي خطوة يقف ويسأل ويستشير ويستخير ويبحث عن الحكم.

(إن للمتقين) هؤلاء هم من سَيَنْجون (إن للمتقين مفازًا) ما هو هذا المفاز؟ (حدائق وأعنابًا () وكواعب أترابًا () وكأسًا دهاقًا) [النبأ:32-34] قمة أنواع النعيم. فيفوزون بالأشياء التي منعوا شهواتهم منها في الدنيا.

(حدائق) وخصَّ الحدائق بالأعناب ، و(كواعب) التمتع بالنساء حلالهم و(كواعب أترابًا) أي تكون النساء بِكرًا. و(أترابًا) نفس السن، أي مستويات في السن. فتخيل الشخص يجلس مع زوجته وحوله حدائق وأعناب وكأس الخمر أيضًا: (وكأسًا دهاقًا) متتابعة لا تنتهي (دهاقًا) ملأى ومتتابعة. فقال بعضهم: معنى أن الكأس لا تنتهي أن المجلس لا ينتهي، وكذلك النعيم لا ينتهي. فهو لا ينام هنا -في الجنة- تَنَعُّمًا، أما الآخر هناك في جهنم لا ينام -والعياذ بالله- عذابًا. مشهد متطابق ومتضاد: ذاك في أسفل سافلين، وهذا في أعلى عليين.

(وكأسًا دهاقًا) خمر؛ لكنه خمر ليس فيه الأذى الموجود في خمر الدنيا.

(لا يسمعون فيها لغوًا ولا كذابًا) [النبأ: 35] عندما يسمع الإنسان عن النعيم يخاف دائمًا من المنَغِّصات. فمثلًا تبحث عن شقة فتجدها في الدور الأول واسعة وبها حَمَّامان وكذا، لكن صوت

مِن مائِها، لا أسْأَلُكَ غَيْرَها، فيَقولُ: يا ابْنَ آدَمَ، ألَمْ تُعاهِدْنِي أنْ لا تَسْألَنِي غَيْرَها، قالَ: بَلى يا رَبِّ، هذِه لا أسْألُكَ غَيْرَها، ورَبُّهُ يَعْذِرُهُ لأنَّهُ يَرى ما لا صَبْرَ له عليها، فيُدْنِيهِ مِنْها، فإذا أدْناهُ مِنْها فَيَسْمَعُ أصْواتَ أهْلِ الجَنَّةِ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، أدْخِلْنِيها، فيَقولُ: يا ابْنَ آدَمَ ما يَصْرِينِي مِنْكَ؟ أيُرْضِيكَ أنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيا ومِثْلَها معها؟ قالَ: يا رَبِّ، أتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وأنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ فَضَحِكَ ابنُ مَسْعُودٍ، فقالَ: ألا تَسْألُونِي مِمَّ أضْحَكُ فقالوا: مِمَّ تَضْحَكُ، قالَ: هَكَذا ضَحِكَ رَسولُ اللهِ ﷺ، فقالوا: مِمَّ تَضْحَكُ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: مِن ضَحِكِ رَبِّ العالَمِينَ حِينَ قالَ: أتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وأنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ فيَقولُ: إنِّي لا أسْتَهْزِئُ مِنْكَ، ولَكِنِّي على ما أشاءُ قادِرٌ./مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ١٨٧ • [صحيح]

السيارات سيُضايقك. أقل شيء يُمكن أن يُنغِّص على الإنسان في الدنيا هو السمع. فهناك مُنَغِّصات بصرية، وهناك مُنَغِّصات بدنية، وهناك مُنَغِّصات نفسية، لكن أقل شيء يمكن أن يؤذي الإنسان هو مجرد السمع. فالله سبحانه يقول لك إنه حتى سمعك لن يؤذى في الجنة. فالإنسان –وهو جالس في الجنة– لن يسمع أي صوت يضايقه حتى لو كان من بعيد. فالله سبحانه لم يقل: لن يرى شيئًا يضايقه، أو لن يشعر بشيء يضايقه، بل حتى السمع: لن يسمع شيئًا يضايقه.

(لا يسمعون فيها لغوًا ولا كذابًا) [النبأ: 35] ربط بعض المفسرين بين علاقة "اللغو والكذاب" بالسورة، فقالوا: التساؤل الذي ذكر في البداية كان لغوًا: (وكذبوا بآياتنا كذابًا) [النبأ: 28] فكان حال أهل الكفر بين اللغو والتكذيب. فالمؤمن تعب من هذا المجتمع، لذلك يقول له الله: اطمئن، لن تسمع لغوًا ولا تكذيبًا. وهذا هو النعيم: ألا يسمع الإنسان لغوًا ولا تكذيبًا.

فالله يقول إن من نعيم أهل الجنة أنهم لن يسمعوا لغوًا أو تكذيبًا، لكن هناك أناسًا في الدنيا يختارون بأنفسهم أن يشاهدوا برامج اللغو والتكذيب! إذًا من أعرض عن اللغو والتكذيب في الدنيا يأخذ هذا النعيم في الآخرة. وكما قلنا سابقًا إن أول أسباب الفتنة قول الله عز وجل في سورة المائدة: (سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) ، ويقول الله في آخر الآية (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا) [المائدة: 41] .. إذًا سماع التكذيب هو أول باب الدخول في الفتنة. فأنت تفتن نفسك عندما تستمع وتجلس مع الذي تعرف أنه كذاب!

(لا يسمعون فيها) جاءت بصيغة المضارع المستمر للدلالة على أنه لن يحصل أبدًا لغو أو كذاب. وقال بعض المفسرين في دلالة الكلام عن اللغو والكذاب هنا: أن خمر الجنة لن تجعل الإنسان يخرف أو يقول لغوًا ولن تجعله يكذب، فيكون مطمئنًا أن هذا الخمر الذي يشربه وهذا الكأس الدهاق –بالرغم من أنه ملئ ومتتابع– لن يوصله أبداً لمرحلة أن يقول لغوًا أو كذبًا.

(لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا) [النبأ: 35]

كل هذا: (جزاء من ربك عطاءً حسابًا) [النبأ: 36] انتبه للتعبير القرآني، فهناك لم يقل الله: "جزاء من ربك وفاقًا" ! بل قال: (جزاءً وفاقًا) [النبأ: 26] فهناك– مع أهل جهنم– لم يأت بلفظ الربوبية، أما هنا جاء لفظ الربوبية للدلالة على التربية بالنعيم. (جزاءً من ربك عطاءً حسابًا)

عطاءً حسابًا

بعض المفسرين –وأظن مال إليه ابن كثير– قالوا: حسابًا ليس معناها بالحساب. حسابًا هنا بمعنى: أعطيتُ الرجل حتى قال حسبي، حسبي: أي كفاني. أَحْسَبْتُ الرجل: أي أعطيته فوق حقه. فـ (جزاءً من ربك عطاءً) معناها: أن الذي أخذوه هو عطاء من ربك (حسابًا) فوق أعمالهم. فهذا الجزاء تفضُل من ربك فوق أعمالكم.

الله عز وجل عندما يعطي يُعطي بالفضل، لذلك آخر شخص يخرج من النار والله سبحانه يقول له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلك من أهل الدنيا ومثله ومثله ومثله ومثله؟ فيقول الرجل: رضيت. فيقول له الله سبحانه: وعشرة أمثاله. مع أن الرجل اكتفى وقال: رضيت يعطيه الله أكثر! فأنت تظل تأخذ من عطاء الله حتى تقول: كفى، لا أريد. فالله هو الكريم سبحانه وتعالى. هذه هي الملأى المتتابعة. هذا أحد معاني (جزاء من ربك عطاء حسابا)

وهناك معنى آخر جميل ذكره الإمام الطبري ومال إليه فقال: (جزاءً من ربك) بمعنى أنهم سيُجازون بأعمالهم لكن أعمالهم هذه عطاءً حسابًا، ما معنى هذا؟

من رحمة الله وهو يعامل أهل الإيمان أنه يعطيهم الحسنة بعشرة، وربما العشرة بمائة إلى سبعمائة ضعف. فكلمة عطاءً أي أن الحسنة بعشرة أو الحسنة بمائة، وكلمة حسابًا أي أنها تُحسب لك. فمثلاً عندما تأتي يوم القيامة من الممكن أن يحدث الحساب بصورة من اثنتين:

الأولى: أن تأتي بحسناتك التي فعلتها، وتكون الحسنة بواحدة. فمثلاً أنت لك ألف حسنة وتكون في صحيفة وحدها ألف حسنة.. وصحيفة أخرى هي صحيفة الكرم بها الزيادة. فالصحيفة الأولى وحدها تُدخِلك النار، لكن الله يَمُن عليك ويكرمك بالزيادة الموجودة في صحيفة الكرم، تضاف لك فتدخل الجنة. فتظهر أمام الناس أنك فعلت ألف حسنة –الأساسية قبل الزيادة– ثم تضاف لك الزيادة فتدخل الجنة دون أن يظهر ذلك للناس.

الثانية: لكن الله لم يفعل هذا معنا بل كتبها لك في صحيفتك كأنك أنت الذي فعلتها فضلًا وكرمًا،هذا هو معنى (عطاءًا حسابًا) أي أنك عملت حسنة واحدة فتُكتب لك أنك عملت ألف حسنة، فيكتب في صحيفتك –من البداية– أن فلانًا فعل ألف حسنة –بدلًا من واحدة، فتأتي يوم القيامة أمام الناس فينظرون إلى صحيفتك ويتعجبون: أأنت فعلت كل هذه الحسنات؟!!!

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللهَ تَعالى يَقبَلُ الصَّدَقةَ، ويأخُذُ بيَمينِه فَيُرَبِّيها لِأَحَدِكُمْ كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ، حتّى إنَّ اللُّقمَةَ لَتَصيرُ مِثلَ أُحُد "[6] أنت تصدقت بلقمة فتظل تنمو حتى تُكتَب لك في صحيفتك كأنك تصدقت بجبل أُحُد، حُسِبت لك أنك تصدقت بجبل.. هذا العطاء لم يُزاد، ولكن حُسب لك من البداية.. هذا معنى عطاءً حسابًا.

فتأتي يوم القيامة بصحيفتك أمام الناس فيجدون أنك تصدقت بمثل جبل أُحُد، وعملت آلاف الحسنات. فتكون هذه زيادة في الكرم أمام الناس، وينظر إليك الناس على أنك ملياردير حسنات. وهذا هو المعنى الثاني للآية.

والله عز وجل لم يظلم الكافر فأعطى له السيئة بواحدة، ولم يضاعف له السيئات.

(جزاء من ربك عطاءً حسابًا) [النبأ: 36] وقد قال بعض المفسرين كلمة جميلة؛ قالوا: إن الكاف في {جزاء من ربك} هي كاف خطاب لمن؟ للنبي صلى الله عليه وسلم. فمن الممكن أن يظن أحد عندما يسمع الآية أن هذا العطاء الذي سبق ذكره هو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم فقط، فالله سبحانه يقول لك: ربك هو رب السماوات والأرض، الرحمن، وهذا العطاء ليس خاصًّا بالنبي صلى الله عليه وسلم بل هو للأمة كلها، كما أن العطاء مفتوح (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبًا) [النبأ: 39].

مرة أخرى (جزاءً من ربك) أي رب النبي صلى الله عليه وسلم، فربما عندما تسمع: (جزاءً من ربك) – رب النبي– (عطاءً حسابًا) تعتقد أن ذلك خاصٌّ بالأنبياء، لن يكون لنا كل ما سبق، فربنا قال لك: لا؛ لذلك جاءت الباء مكسورة في قراءتنا (جزاءً من ربك عطاءً حسابًا() ربِّ السماوات....) [النبأ:36-37] ليست "ربُ السماوات" في قراءتنا قراءة حفص، (ربِّ السماوات) هذه بدل من كلمة (ربِّك) أي: ربك يا محمد هو رب السماوات والأرض، والذي أنعم عليك ينعم على أهل السماوات والأرض وهو الرحمن لم تأتِ الرحيم أيضًا، بل الرحمن: واسع العطاء يشمل كل الناس، لكن لمن اتخذ إلى ربه الذي هو (ربِّ السماوات والأرض) الذي يريد أن يرجع لربنا فليسرع: (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبًا) [النبأ: 39].

(رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن) [النبأ: 37] هنا عاد ثانيةً للبعث، نحن كنا قد قلنا في المرة السابقة إن أشد نبإ عظيم كان له وقع على المشركين شيئان: البعث والتوحيد. ربنا يتكلم عن البعث، هنا يتكلم إنه لا أحد يملك إلا الله، أكثر شيء كان يتعب المشركين نفسيًا، إنه سيحاسب على أعماله أن هناك بعث، وأن تقاليد الآباء، والآلهة التي يكتسب من ورائها اقتصاديًا بوضع الآلهة حول الكعبة كل

[6] عن أبي هريرة: إِنَّ اللهَ تَعالى يَقبَلُ الصَّدَقةَ، ويأخُذُ بيَمينِه فَيُرَبِّيها لِأَحَدِكُمْ كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ، حتّى إنَّ اللُّقمَةَ لَتَصيرُ مِثلَ أُحُد /الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الجامع ١٩٠٢ • صحيح

هذا خطأ.. لماذا دائمًا الناس تبحث عن واسطة ولا تريد أن ترتبط بربنا مباشرةً؟! لماذا دائمًا المناهج الضالة تقول له: أنت من الممكن أن تصل لربنا عن طريق الآلهة، عن طريق الأولياء، عن طريق أصحاب القبور، عن طريق المسيح، عن طريق الأقطاب والأبدان عند الصوفية، عن طريق الأئمة التي عند الشيعة... لماذا تبحث المناهج الضالة كلها دائمًا عن واسطة؟ هكذا هو دائمًا الذي في الطريق الخطأ، يبحث عن واسطة، أما الذي في الطريق الصحيح، يُوضع له قانون يسير عليه. دائمًا الذي يريد الهرب يأتي بواسطة، يفعل الخطأ الذي يريده، ويذهب ليجلس على كرسي الاعتراف ويقول للواسطة رتب أموري هناك، وأنا سأرتب أمورك هنا! فربنا ينفي ذلك، أثبت لهم البعث ونفى أن أحدًا يملك أي شيء إلا الله، ومن يأذن له الله.

(لا يملكون منه خطابًا) [النبأ: 37] فيها معنيان؛ المعنى الأول: إن الخطاب هنا معناه المخاصمة في تقليل العقاب، فلن يستطيع أحد –عندما يرى عقابه– لن يستطيع أن يطلب تقليله، لن يمكن لأحد أن يفعل ذلك ساعة العقاب، لن يمكن لأحد أن يتكلم، لن يأذن له الله عز وجل، أحد معاني قول الله عز وجل: (ولا هم يستعتبون) [الروم: 57] من معانيها: لن يُسمح لهم حتى بالاعتذار، أحيانًا عندما تريد أن تعاقب أحدًا بشدة وهو مخطئ وجاء مطأطئًا وجهه في الأرض ويريد أن يعتذر، تقول له: لن أسمح لك حتى بالاعتذار. تكون شديدة عليه.. فمن معاني: (ولا هم يستعتبون) أي لن يُسمح لهم بطلب الاعتذار أصلًا، ولذلك جاءت في آخر سورة الجاثية بعدها (وله الكبرياء) [الجاثية: 37] من كبرياء الله سبحانه وتعالى أنه هناك مواطن لا يُسمح لأهل الكفر حتى بالاعتذار.

وقيل: (لا يملكون منه خطابًا) [النبأ: 37] وهذا المعنى الثاني قاله الزمخشري: أي أن الله عز وجل لم يُمَلِّكهم خطابًا فيستطيع هو أن يغير شيئًا. الله عزو جل لم يُمَلِّكهم خطابًا أو شفاعة أو وسيلة ليُغيِّروا بها. فالشاهد أن معنى الآية (لا يملكون منه خطابًا) لا يستطيعون أن يُغيِّروا، لن يقدر هو أن يُغيِّر، لن يقدر أن يطلب هو التغيير من ربنا ولا يوجد شفيع سيُغيِّره.

أي أن ربنا نفى تغيير العقاب الذي سبق كله، لن يتغير، لا أنت تقدر أن تغيره، ولن تقدر أن تطلب من ربنا أن يغيره، ولن تقدر أن تطلب من شفيع أن يغيره.

الجميع سيكون واقفًا: (يوم يقوم.....) [النبأ: 38]، يقوم هذه من العبوديات التي لا تكون إلا لله "لفظ القيام" ؛ لذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: "من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار"[7] هذه من العبوديات التي لا تكون إلا لله؛ لذلك فالقيام من الأركان في الصلاة التي لا

7-عن معاوية بن أبي سفيان: من أحبَّ أن يتمثَّلَ له النَّاسُ قيامًا، فليتبوَّأْ مقعدَه من النارِ/الألباني (١٤٢٠ هـ)، السلسلة الصحيحة ٣٥٧ • صحيح على شرط الشيخين • أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥)، وأحمد (١٦٨٣٠) باختلاف يسير

تسقط إلا بعذر. (يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا) [النبأ: 38] قيل: (وقال صوابا) أي: قال صوابًا في الدنيا، أي: لا إله إلا الله. وقال ابن عباس هي منتهى الصواب. وقيل (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا) أي: يقول صوابًا أثناء الشفاعة.. أي الذي سيشفع سيسمح الله بالشفاعة يوم القيامة لمن يأذن له ومن يرضى بقوله، مثل النبي –صلى الله عليه وسلم– وبعض أهل الإيمان.

ما المراد بالروح؟

ولماذا الروح؟ قيل في الروح أقوال كثيرة.. قيل: جبريل، وقيل: القرآن، وقيل: مخلوق خاص، وقيل: أرواح بني آدم.. المشهور هو جبريل. لماذا جبريل تحديدًا هنا؟ لماذا عطف؟ بدأ بالخاص ثم العام، لماذا جبريل؟ جبريل الذي نزل بالوحي، فكأن جبريل واقف للناس الذين يُنكِرون: لا.. الوحي وصل لكم، الشريعة وصلتكم، الذي أنكرتموه أنتم، أنا نزلت به.

ولله المثل الأعلى، أنا أريد أن أعاقب ابني الصغير على شيء وكنت قد قلت لابني الكبير: اذهب بَلِّغْه ألا يفعل كذا ففعل الخطأ، فأنا –والكبير واقف بجواري– أنادي الصغير: هل يَصِحُّ الذي فعلته؟ لن يقدر أن ينكر؛ لأن الذي كلَّفتُه أن يُبلِّغه حاضر وشاهد.. فالروح الذي بلغ يقوم، والملائكة التي كتبت الأعمال، والتي شهدت، والتي دبرت لهم، والتي أمرها ربنا أن تمهد لهم وتنزل لهم القطر، سواء التي كتبت أو التي شهدت أو التي ساعدت، كلهم حاضرون.

(يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا...) [النبأ: 38] الخطاب في الآخر دخل في الهمس السكوت، وكان قد بدأ بالكلام والثرثرة (عم يتساءلون) [النبأ: 1] بدأت السورة بتساؤل وانتهت بِتَمَنٍّ وندم.. بدأت السورة بـ (يتساءلون) وانتهت بـ (يا ليتني كنت ترابًا) [النبأ: 40].

انظر؛ السورة حوَّلت الكافر الكذاب المتسائل المستهزئ، ضغطت عليه، جعلته في آخر السورة يقول: (يا ليتني كنت ترابًا).. انظر ضغط السورة حَوَّلته من متسائل مستهزئ إلى نادم! بدأت بكلام وخُتِمَت بصمت: (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا).

اليوم الحق

(ذلك اليوم الحق....) [النبأ: 39] هذا اليوم الذي كنتم تنكرونه ظهر أنه حق. قيل (ذلك اليوم الحق) معناها: أن هذا هو اليوم الذي يستحق اسم الحق وما سواه كأنه سراب، عكس فهم أهل الكفر، كانوا

يعيشون في الدنيا على أنها الحق والآخرة سراب، أهل الإيمان ربنا يقول عنهم في أول البقرة: (وبالآخرة هم يوقنون) [البقرة: 4] , العلماء يقولون: تقديم (بالآخرة) على (هم يوقنون) أي: لا يوقنون إلا بالآخرة. ما معنى لا يوقنون إلا بالآخرة؟ أي كأنه كان يتعامل مع الدنيا على أنها سراب. أي: الذي كان يراها على حقيقتها هم أهل الإيمان، والذي كان يراها خطأ هم أهل الكفر. فربنا يقول لهم:اليوم الذي أنتم استهزأتم به وتساءلتم عنه، النبأ العظيم ظهر أنه حق وصدق المرسلون، هذا هو اليوم الحق وانتهى الأمر، فربنا يقول لهم: بدلًا من أن تختارجهنم التي ستكون للطاغين مآبًا ارجع لربنا الآن، اجعل مآبك لربك: (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبًا) [النبأ:39] , ارجع إلى ربك.

انظر لختام السورة ثانيةً، بالفعل ضربات على القلب من كل اتجاه، تخويف ونِعَم ولطف ونعيم وعذاب ورعب ومهابة... بالفعل القلب في النهاية قد لا يفهم الذي حدث، لكنه يُسَلِّم في آخر السورة. الطرقات المتتالية تلك؛ وفي النهاية يقول ربنا له ارجع لربك، ارجع للذي جعل لك الأرض مهادًا، والذي جعل لك الجبال أوتادًا، وبنى لك سبعًا شدادًا، وجعل لك النوم و.. و... ارجع لربك، اتخذ إليه مآبًا وطريقًا قبل أن تكون جهنم مآبًا لك. أنا حذَّرتك وقلت لك: (إنا أنذرناكم عذابًا) [النبأ: 40] حتى لا تقول: أيان يوم القيامة، لا: (عذابًا قريبًا) احذر من منظر جهنم المترصدة، العذاب قريب، قد تدخل جهنم في لحظة، "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك"[8]

(إنا أنذرناكم عذابًا) عذابًا جاءت نكرة والنكرة في اللغة الشيء الذي لا يوصف. النكرة تأتي إما للتعظيم أو للتحقير –لعلنا في درس آخر قد نتكلم عن مسألة النكرة في اللغة– (عذابًا) أي لا يوصف. (عذابًا قريبًا) أي حتى هذا الوصف لا شيء بالنسبة للذي سيحدث.

(إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) [النبأ: 40] المرء هنا –الإمام الطبري قال– هذا المؤمن، ينظر المرء يعني: المؤمن يكون سعيدًا، لتكون عكس كلمة الكافر. المؤمن سعيد ينظر بفرحة، والكافر يقول يا ليتني كنت ترابًا. وبعضهم قال: (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) الكل سيرى الذي سيُحاسَب عليه والكافر يقول يا ليتني كنت ترابًا. انتبه لكلمة بعضهم قال: يا ليتني كنت ترابًا، كثير من المفسرين قال: ما معنى (يا ليتني كنت ترابًا)؟ أن الله عز وجل يوم القيامة سيبعث الحيوانات، وعملية الإحياء، هذه العملية العظيمة، ستتم فقط من أجل العدل، لِيَقْتَصُّوا من بعضهم البعض، تَقْتَصُّ الشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ثم يقول للحيوانات: كوني ترابًا. فأول ما يرى الكافر هذا المشهد يقول: يا

[8] عن عبدالله بن مسعود: الجَنَّةُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِن شِراكِ نَعْلِهِ، والنّارُ مِثْلُ ذلكَ /البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٦٤٨٨ • [صحيح]

ليتني كنت حيوانًا[9]. فقد الكافر إنسانيته، بل تمنى أن يفقدها؛ لذلك يناسب كلمة (يوم ينظر المرء) مأخوذة من المروءة.. المرء بعدما جعله ربنا امرَئًا وجعله من بني آدم يريد هو أن يكون حيوانًا!

الروح جبريل نزل بالروح –القرآن– ليكون هو من بني آدم، وهو يريد أن ينزل إلى أسفل سافلين (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا) [النبأ: 40] في قول غريب نختم به: بعضهم قال: الكافر هذا إبليس؛ عندما يرى إبليس نعيم أهل الجنة يقول يا ليتني كنت ترابًا، أي يا ليتني كنت مخلوقًا من الطين الذي احتقرته، لأنه قال لله: (أأسجد لمن خلقت طينًا) [الإسراء: 61]. أنت تريدني أن أسجد للتراب؟ فجاء في النهاية يقول: يا ليتني كنت أنا هذا التراب، يا ليتني كنت مثل بني آدم – على أحد الأقوال– أيًا كان والكافر للعموم.

نسأل الله أن يعيذنا من النار، وأن يجعلنا من المتقين الذين يفوزون بهذا النعيم الذي ذُكِر في هذه السورة، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك الله وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وجزاكم الله خيرًا.

9-عن أبي المغيرة: عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو قال: إذا كان يومُ القيامةِ مُدَّ الأديمُ وحُشِرَ الدَّوابُّ والبهائمُ والوحشُ ثم يحصلُ القِصاصُ بين الدوابِّ يُقتصُّ للشاةِ الجمّاء من الشاةِ القرناءِ نطحَتْها فإذا فُرِغَ من القِصاصِ بين الدوابِّ قال لها كوني تُرابًا قال فعند ذلك يقول الكافرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرابًا/الألباني (١٤٢٠ هـ)، السلسلة الصحيحة ٦٠٧/٤ • إسناده جيد